اختبارات الإسقاط فى الطب العقلى الإكلينيكى *

للدكتور م . بلولر
الأستاذ بكلية الطب بزيورخ
تلخيص : أميرة حلمى مطر

ليس من اليسير تحديد قيمة اختبارات الإسقاط فى ميدان الطب العقلى الكلينيكى خاصة لأن الرأى قد اختلف بين الأخصائيين المتحمسين لها ومعارضيهم الكلينيكيين المشتغلين بالعيادة الذين لا يستعينون بها . وفضلا عن هذا الاختلاف فإن الذين يستعملونها لا يوضحون أهميتها ولذلك أنتهز هذه المناسبة لانعقاد المؤتمر الدولى فأوضح تلك المسائل الهامة وهى اختلاف الرأى فى قيمة اختبارات الإسقاط ومدى استعمالها فى الطب العقلى الكلنيكى وما هى قيمتها النظرية والعملية .

هذا هو موضوعى أما بخصوص منهجى فأقول إن الطب العقلى الكلينيكى قد أصبح من الاتساع حتى شمل اختبارات الإسقاط إلى جانب التشخيص النفسى ولمن أراد تقديم عرض كامل للاختبارت أن يستعين بتاريخ المؤلفات إلا أن هذه الوسيلة إذا خلت من التجربة الشخصية لا تعدو أن تكون ثبتاً جافا بالمراجع وإن احتوت على كثير من التفصيلات التى لا يصل إليها المجرب على أنى أفضل التجربة الشخصية التى تستمد معلوماتها من الحياة مباشرة وأقول لكى أتلافى التأويل الخاطىء إنه ليس معنى إيجازى فى بعض المواضع أننى أغفل أهميتها بل الأمر موكول إلى مدى خبرتى بها فأنا الكلينيكى أصلا لا استعمل الاختبارات إلا بصفة إضافية زائدة ولذلك فإنى اهتممت بنوعين هما اختبار رورشاخ إذ كان لى حظ معرفة

* عقد بباريس من ٤ إلى ١٢ أكتوبر عام ١٩٥٠ أول مؤتمر دولى للطب العقلى . ومن بين الموضوعات التى بحثت موضوع اختبارات الإسقاط وتطبيقها فى الطب العقلى الكلينيكى للدكتور م . بلولر الأستاذ بكلية الطب بزيورخ وهذه ترجمة موجزة لتلك المحاضرة القيمة .

عن صاحبه الذى أطلعنى عليه منذ ٣٠ عاماً فطبقته منذ ذلك الحين على المرضى والأسوياء وقارنت النتائج بالتقريرات الكلينيكية وكذلك عرفت تجربة التداعى ليونج وبعض الاختبارات الخاصة بالأطفال بفضل خدمتى للطب العقلى للأطفال وعلى العكس من ذلك ليس لدى إلا القليل من الخبرة الشخصية فيما يتعلق بالاختبارات الأخرى الهامة مثل اختبار تفهم الموضوع لموراى Murray. "Thematic apper-ception test" واختبار Wartegg .

ونستطيع استناداً على تطبيقنا اختبارات الإسقاط عند مرضى الأمراض العقلية أن تنتهى إلى هذه النتيجة « ينعكس مفهوم علم النفس المرضى المعروف لنا من التجربة الكلينيكية فى اختبارات الإسقاط » ومعنى هذا أننا نستطيع بواسطة اختبارات الإسقاط أن نصل إلى نفس النتائج التى نصل إليها بالاختبار الكلينيكى وإن هناك إنسجاماً بين اختبارات الإسقاط وعلم النفس المرضى العام . إلا أن هذا المبدأ لم يكن بالمتفق عليه دائماً وكثيراً ما أغفله بعض المؤلفين ومن أمثالهم إخصائيو الاختبار الذين زعموا إمكان الوصول بواسطته إلى اكتشافات جديدة فى علم النفس المرضى لم يصل إليها البحث الكلينيكى وإلى جانب هؤلاء إكلينيكيو المدرسة القديمة واتباع الطب العقلى عند كريبلان Kraepelin ونظرية « ألمانيا الموحدة » la monomamie فى المدرسة الفرنسية القديمة المتأثرة بالنظام الطبيعى Systema Naturae عند لينيه Linné وهؤلاء كلهم قد مالوا للفكرة القديمة القائلة بذهان psychose ذى عدد من الأعراض المنفصلة وأرادوا استخدام اختبارات الإسقاط فى الكشف عن أعراض جديدة قصد إضافتها إلى المجموعة المعروفة لهم ومثل هذا الرأى لا يتفق مع المقصود من اختبارات الإسقاط التى لا توضح إلا اضطراباً فى الشخصية بأسرها ككل وفى جميع مظاهرها .

وهنا قد نتساءل هل معنى وصول اختبارات الإسقاط إلى النتائج نفسها التى نصل إليها بطريق الاختبار الكلينيكى إنها عاجزة عن أى اكتشاف جديد مختلف عما وصل إليه الطب العقلى ؟ لنبدأ البحث أولا فى ميدان الذهان ذى الأساس المخى وهنا يجب أن نميز فيه بين أنواع ثلاثة أولها يجمع تحت اسم النمط الرجعى الحاد على حد تعبير بونهوفر Bonhoffer ويشمل هذا النوع الهذاء والحالات الغسفية وانحرافات الإدراك والهلوسات ومرض كورساكوف الحاد. وثانياً الحالات المزمنة

(١) خلل عقلى بالنسبة لموضوع واحد معين وأن ظل المريض سوياً بالنسبة لغيره من الموضوعات

المتميزة بعدم وجود اختلال ذهنى مع الاضطراب فى الاندفاع والمزاج وترجع إلى تلف مخى ذى موضع محدد.

أما النوع الثالث وهو الأهم فينسب إلى تلف مخى مزمن منتشر غير محدد، وقد يكون ذى أساس تسممى أو إصابى أو انحلالى أو التهابى أو وعائى لتصلب الشريان وقد اختلف العلماء فى تسميته فالبعض يسمونه عصاب كورساكوف وأحياناً يطلق عليه prychosyindrome amnésique ويقترح ا . بلوير E. Bleuler اسم syndrome[1]psychoorganique أى المرض النفسى العضوى.

ولا يعنينا الآن إيجاد التسمية له بقدر ما تعنينا أعراضه كما تظهر فى نتيجة الاختبار وهذه تتلخص فى فقر الأفكار وسيطرة فكرة بالنسبة لغيرها وفقدان القدرة على النقد والميل إلى التعلق بالتفصيلات وسرعة التعب وهى تنعكس فى اختبار الرورشاخ فيقابل قلة الأفكار قلة فى عدد الإجابات وافتقارها للتنوع وزيادة نسبة الحيوانات وتظهر نقص القدرة على النقد فى عدم القدرة على النظرة الشاملة أما التعلق بالتفصيلات فيظهر مثلا فى أن يؤول المريض البقعة على أنها بقرة لمجرد وجود نتوء يشبه القرن ويظهر الإصرار على فكرة ما فى تمسك المريض بفكرة معينة ولو حتى غيرنا الاختبار أما سرعة التعب فيعبر عنها الاختبار ببطء الاستجابة . ويمكن أيضاً الكشف عن الناحية الوجدانية بواسطة اختبارات الإسقاط إذ يتميز فيها المريض بالجمود والبلادة وضياع كل اندفاع وهبوط الوجدانات وفى حين رأينا كيف أن فكرة ما قد تسيطر على المريض فكذلك قد يستولى عليه وجدان معين فيندفع فيه المريض اندفاعاً يفقد معه أى تحكم فى عواطفه الأخرى ومما يبدو منه أثناء الاختبار أنه يفقد الاهتمام به ولا يعطى إلا إجابات سطحية متكررة تزيد فيها صور الحيوانات ويتضاءل عدد الإجابات الحركية والشكلية اللونية forme couleur مما يدل على فقدان القدرة على الإبداع الفكرى والهبوط الوجدانى فإذا انتقلنا إلى ميدان آخر هو ميدان الفصام schizophrénie الناتج عن وجود انشقاق dissociation يفقد معه المريض وحدته وتظهر عنده أعراض نفسيه منفصلة تتلخص فى ظاهرة تناقض الصدى الوجدانى والعقلى للتجربة الواحدة التى يعانيها المريض وفى عدم الانسجام بين حركات وجه المريض وصوته وحالته الانفعالية وفى انهيار الشخصية

(١) لفظ Syndrome يشير إلى مجموعة أعراض مرضية توجد عادة معاً مكونة وحدة مرضية .

حتى ليشعر الفرد بأنه منقسم قسمين أحدهما متعلق بالأنا والآخر منشق عليها فلا يستطيع أن يتجه إلى هدف معين وكأنه مسوق بقوة خفية لشخص آخر ، هذه الأعراض المعروفة لنا بالتجربة الكلينيكية نستطيع الوصول إليها بواسطة اختبار الإسقاط فما يدل على عدم الانسجام مثلا حدوث رفض كلى مفاجىء للاختبار إلى جانب الإجابات الجيدة أو أن يتبع بعض الإجابات السطحية التافهة إجابات فكرية متعددة وأحلام لا شعورية وكثرة ظهور الأشباح المقنعة والصور المفزعة لأجسام بشرية مقطعة ومستترة تحت صور للحيوان أو النبات وكذلك الحال فى العصاب Nevroses لم يأتى الاختبار بشىء جديد وإن كان له فضل الإفصاح عن الرغبات والأفكار المكبوتة فمثلا فى اختبار رورشاخ تدل ظاهرة الصدمة اللونية choc-couleur التى يتوقف فيها المريض عن تفسير الاختيار ولا يعطى أى إجابة حركية أو إجابة شكلية إلا بغاية الصعوبة على أن المريض يعانى صراع الحيلولة بين رغباته المكبوتة من الظهور الأمر الذى يقتضى دائماً كف النشاط النفسى والوقوع فى حالة من الذهول ومن ناحية أخرى نجد أن الاهتمام بمضمون الإجابة وعدم الاقتصار على شكلها فقط قد يؤول فى كثير من الأحيان حسب الاتجاه الفرويدى على أنه نوع من التداعى الحر أو الأحلام .

ولاختبارات الإسقاط قيمة فى تقدير الذكاء والضعف العقلى ففى حالات النقص العقلى Oligophrénie المصحوبة بعدم القدرة على التركيب والإبداع الفكرى يقل فى اختبار رورشاخ الإجابات الحركية مما يدل على فقر الأفكار سواء فى مضمونها أو فى عددها .

وفيما يختص بتفسير نتائج الاختبارات يمكن اعتبار ثلاث أوجه هى المضمون والشكل وتصرف المريض أثناء الاختبار وقد لقيت هذه الأوجه الثلاثة درجات متفاوتة من الاهتمام على مر السنوات ففى بادئ الأمر لم يهتم المختبرون بتصرف المريض واعتبروا تأويل مضمون الإجابة نوعاً من الخداع على أن يونج فى اختبار التداعى قد أولى المضمون أهمية خاصة أما الاتجاه الحديث فيعطى أهمية متساوية للأوجه الثلاث وقد أدخلت مدام منكفسكا Mme. Françoise Minkowska تفسيراً جديداً لا ختبار رورشاخ يتميزها بين المرضى الذين يحاولون إيجاد ارتباط بين أجزاء الاختبار وهم أصحاب المزاج اللزج شبه المصروعين épileptoide والمرضى الذين يميلون إلى التجزئة فى الأشكال وهؤلاء هم الفصاميون .

والخلاصة أن اختبارات الإسقاط تكشف عن نفس الشخصية ونفس الاختلال يتضافر أوجه الاختبار الثلاثة سلوك المريض ومضمون الإجابة وشكلها وهذا يؤدى بنا إلى هذه النتيجة الهامة وهى أن اختبارات الإسقاط لا تجدد فى علم النفس المرضى المعروف فى الأمراض العقلية وإن كانت تؤكده .

أما فيما يتعلق بنتيجة اختبارات الإسقاط كوسيلة للتشخيص فى الأمراض العقلية فإننا حين نقارن بينها وبين المنهج الكلينيكى المستعمل نجد أنها لا تمتاز عنه كثيراً إذ تفشل مثله فى تعيين العلة الجسمية الخاصة بحالات الأمراض النفسية العضوية وإن استطاعت الكشف عن الأعراض المعروفة لها وينطبق هذا الرأى أيضاً على حالات النقص العقلى oligophrémie إذ يفشل الاختبار كالتشخيص الكلينيكى فى بيان سبب اضطراب التوتر l'agitation catatoniforme هل ترجع إلى طبيعة فصامية أم مجرد أعراض للبله idiotie . ومن ناحية أخرى لا نستطيع أن نستغنى عن المنهج الكلينيكى البسيط المستعمل فى محاورة المريض كما قد لاح لإخصائى الاختبار الذين كانوا يرون فيه وسيلة أسرع وأكثر تأكيداً فحقيقة يفيد الاختبار فى تبسيط الحالات الغامضة وخاصة عند الأطفال إلا أنه لا يكفى حتى ولو لم نقتصر على اختبار واحد واستعملنا عدة اختبارات . هذا إلى أننا لا نستطيع أيضاً الاعتماد عليه وحده فى تقدير درجة خطورة المرضى من الناحية الاجتماعية وإلى أى حد يخول لنا حق الحكم على المريض بضرورة حجزه فى المستشفى أو وضعه تحت الوصاية أو مدى صلاحيته للحياة الزوجية أو لعمل معين .

فإذا لم تأت لنا اختبارات الإسقاط بنتائج حاسمة فى التشخيص الكلينيكى فما مقدار أهميتها فى مجال الكشف عن مضمون الشخصية ؟ للإجابة عن ذلك السؤال يجب أن نواجه الطب العقلى عند الأطفال إذ لا تكفى هنا المحاورة فقد يعانى الطفل ما يعانيه ولكنه لا ينطق به ولذلك أفادت اختبارات الإسقاط كوسيلة للكشف عن التوتر الواجدانى والمشكلات الخاصة بالطفل حتى لقد صارت علاجاً لهم قائماً على الإسقاط Therapie de projection[1] . فى الواقع أن استخدام الاختبار عند الأطفال قد صار من الاتساع حتى شمل

(١) أهم الاختبارات الخاصة بالأطفال : اختبار التداعى ليونج واختبار تفهم الموضوع واختبار القصص لدوس Test des fables, Duss واختبارات اللعب .

حياة الطفل بأسرها بعد أن كان جزءاً منها حتى ليقال إن لعبه لم يتحول فقط إلى اختبار ولكن الاختبار نفسه قد صار له لعبا .

أما عند البالغين فالاختبار طريقة من بين عدة طرق للكشف عن الميول الوجدانية المكبوتة وليست الطريقة الوحيدة كما هى الحال عند الأطفال إذ أن المحاورة عند البالغ أكثر أهمية منها عند الطفل لأننا يمكنا أن نستخدم مناهج أخرى كالتداعى الحر وتحليل الأحلام والأخطاء المعتاد وهذا ما يبين لنا سبب إغفال فرويد وغيره من المحللين النفسيين لاستخدامها .

وإذا كنا بصدد قيمة الاختبارات فى الكشف عن الشخصية وهى بلا شك عظيمة الأهمية فيجب أن نتحرز من الفصل بين الشكل والمضمون وإن كنا نستخدمها الآن فى تشخيص السمات المميزة الثابته للمجموعات المتجانسة بعد أن ثبتت أهميتها تجريبياً فى هذا المجال بعد موازنة نتائج الرورشاخ عند تلاميذ سويسريين وألمان وأمريكان ومراكشيين(١) ولكننا يجب ألا نظن أن الاختبار يأتى بنتيجة مؤكدة عن الشخصية أو أنه كاف لتقدير الناحية العملية والاجتماعية فيها أو أنه يمتاز عن الطرق البسيطة الأخرى . فكثيراً ما تأتى الاختبارات غير دقيقة ولا مؤكدة عن الشخصية فتعجز عن إظهار السمات الخاصة بكل فرد ولا تتضح فيها الفروق الموجودة بين الشيخ والشاب أو الرجل والمرأة أو الاتجاهات الإجرامية . هذا إلى أن المختبر بواسطة اختبار الرورشاخ كثيراً ما يعتمد على الإجابات اللونية réponses-couleurs لدى الفرد ، ولما كانت هذه حالة عابرة لأنها تتوقف على المزاج humeur يتعرض الاختبار للتأثر بالمصادفات العرضية الخارجية . لذلك وجبت الاستعانة بمنهج آخر للكشف عن الشخصية هو عادة المنهج الكلينيكى البسيط الذى يتخلص فى محادثة المريض وملاحظة سلوكه وتاريخ حياته . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول إن اختبارات الإسقاط تكمل

---

(١) نذكر بهذه المناسبة مقال بقلم الأستاذ إسحاق رمزى فى مجلة علم النفس مجلد ٢ عدد ٢ . يقول إن من طريف الأبحاث التى انتهى إليها م . بلويلر و ا بلويلر . Bleuler, M, & Bleuler E فى كتابهما : « Rorschach ink - blot test and racial psychology » عن اختبار رودشاخ عند ٢٩ فلاحا من المراكشيين ومقارنة نتائجهم باشخاص يماثلونهم من الاوربيين أن الاختبار استطاع أن يفصح عن لب خلق الشعب المراكشى حين وجدا أن استجابات المراكشيين قد دلت على عوز واضح إلى التكامل والتفكير المجرد على عكس الشائع عند الأوربيين وميز المراكشى بوجه عام أنه حى متأثر بظروف الحياة المحيطة به ولكنه إذا واجه مشاكلها انقلب إلى فصامى النزعة ميالا للعزلة .

الاختبار الكيلنيكى للشخصية وتصححه فى بعض النواحى ولكنها لا تحل محله وإن أتت بنتائج براقة إلا أنها لا تعين السمات الفردية ذات الأثر العملى الاجتماعى .

على ضوء ما قد سبق يتبين لنا أن اختبارات الإسقاط رغم نتائجها الموفقة فى تشخيص الأمراض العقلية والطب العقلى عند الأطفال والكشف عن مضمون الشخصية لم تخرج عن أن تكون وسيلة مساعدة متواضعة . مما يدل على أن قيمتها الحقيقية لا تكمن فى ناحية تطبيقها على التشخيص الجارى كما هو المعروف ولكن فى ناحية أخرى ، فى أنها تفتتح ميداناً جديداً سواء فى الطب العقلى أو فى علم النفس . فهى من أهم دعائم المبدأ الجشطلتى ومبدأ التكامل فى الشخصية وفى ذلك يقول هانز بندر Hans Binder

« إذا أريد مناهج تجريبية تتجه إلى الحياة النفسية بأسرها مع سماحها للفروق الفردية بالظهور فلن نجد خيراً من تجربة هرمان رورشاخ » .

وتتولى اختبارات الإسقاط مهمة معارضة الفكرة الطبيعية Naturaliste القديمة فى تجزئة علم النفس وعلم النفس المرضى إلى أجزاء متميزة منفصلة فى حين أنها تؤكد المبدأ الذى يستند إليه علم النفس الجشطلتى وعلم النفس المرضى والطب العقلى فتبين أن العملية العقلية ليس لها وحدها قيمة هامة لأنها ليست منفصلة عن الحياة النفسية ، كلها كما أن كل عامل فى الاختبار مرتبط بالنتيجة الكلية ولذلك نجد نهضة الاختبارات مرتبطة بازدهار علم النفس الجشطلتى حتى لنجد بعض أعلامه مثل ساندر Sander وفارنج Wartegg يقومون باستعمال رسومات شبيهة باختبارات الإسقاط . ثم يمتد أثرها إلى ميدان باثولوجيا التكوين الجبلى la Pathologie de la constitution وقد سادت فى علم النفس وعلم النفس المرضى والطب العقلى عند كريبلان Kraepelin حوالى قرن من الزمان فكرة التمييز فى الشخصية بين الوجهة الشكلية الثابة بالوراثة ووجه المضمون المتأثر بظروف الحياة الفردية.

ولما أراد أنصار هذا الاتجاه إثبات فكرتهم بواسطة اختبار رورشاخ أتت التجربة بغير ما كانوا يرجون لأن هذه الإطارات الشكلية التى زعموها ثابته ظهر أنها تتأثر بالمضمون فلوحظ التغير الذى ينتاب تلك الإطارات عندما يقرب الطفل مثلا من البلوغ أو حسب الحالات المزاجية المختلفة وترتب على ذلك إثبات التداخل بين الجبلة الداخلية والتجربة الخارجية أو بمعنى آخر استطاع الإنسان أن يحدد عالمه الخارجى بمثل ما يتلقى عنه من تأثير . ثم استطاعت اختبارات

الإسقاط بما تبرزه من سمات مشتركة تتكرر فى الأسرة وبما تراه من وحدة مرنة فى جملة الصفات والسمات الوراثية أن تؤكد الاتجاه الجشطلتى فى التكوين الجبلى la constitution بعكس ما تذهب إليه قوانين مندل فى الفصل بين سمات الشخصية

ومن الظواهر التى تبدو فى اختبار الإسقاط أنه قد يأتى بنتيجة تخالف الشخصية المختبرة . فمثلا قد يعطى المريض إجابة الأسوياء بينما نجد من الأسوياء كآباء الفصاميين من يعطى إجابات مرضى الفصام . كما أن الشخص الواحد قد يعطى إجابات لعدة شخصيات مختلفة . وبناء على ذلك نستطيع القول بأن الاختبارات لا تعطى صورة دقيقة للشخصية ولكنها من ناحية أخرى تكشف لنا عن عدد من المستويات أو المقولات couches فى الشخصية الواحدة أو بمعنى آخر تكشف عما هو موجود بالقوة لا يبدو فى الحياة الظاهرة وهذه الأوجه المتعددة التى تظهرها الاختبارات لا تخلو من فائدة عظيمة حين تكشف عن جوانب سوية عند المريض فتكون خيط الرجاء يتعلق به الطبيب وهو بسبيل العلاج .

وتكاد اختبارات الإسقاط أن تقترب من ظاهرة التحويل transfert بالمعنى الفرويدى حين لا تشمل نتيجة الاختبار إسقاطات المريض فحسب بل تضم إلى جانبها إسقاطات القائم بالاختبار اللاشعورية . وليست تلك الظاهرة مما يقلل من شأنها بل نستطيع أن نفسرها على أساس قيمتها للمجتمع والحضارة بوجه عام فلاشك أن الحضارة بما تفرضه من قيود وحواجز تجعل الفرد ميالا إلى معرفة غيره ليصل من خلالها إلى معرفة أعماق نفسه وفيها يجد الوسيلة التى يهرب بها من عزلته ويقترب من مجتمعه فالاختبارات لا تخدم الفرد المختبر وحده بل القائم بالاختبار والمجتمع أيضاً .

ولكى تتم لنا الفكرة الواضحة عن اختبارات الإسقاط يجدر أن نقدم هذا التعريف الذى وضعه رابابور Rapaport « فى عمليات الإسقاط يكون الفرد بنشاطه التلقائى شكلا محدداً من المادة الغفل مستخدماً فى ذلك الأسس التى تعمل فى تكوينه السيكلوجى . » ويقتضينا العلم باختبار الإسقاط شرح تاريخ الاختبار ومعنى الإسقاط .

وتدين فكرة الاختبار بفضل نشأتها إلى العلوم الطبيعية والتجريبية . على أن أول من استعمل الاختبار كان جالتون Galton عام ١٨٨٣ فى قياس القدرة

على حفظ الحروف الهجائية وإن كان قد استخدم قبل ذلك بدون تسمية عند فنت Wundt وكريبلان Kraepelin وغيرهما وبعد أن أغفل أطباء الأمراض العقلية تجارب علم النفس مدة من الزمان عاد بوكولا Bucuola وكريبلان سنة ١٨٩٣ فاستعانا بعلم النفس التجريبي في الطب العقلي

وكان طابع علم النفس التجريبي في القرن التاسع عشر هو دقة القياس الكمي لتحديد الوظائف النفسية . إلا أن الاختبارات القديمة فشلت في قياس الوظائف النفسية المستقلة كما فشلت النزعة الترابطية atomistique في علم النفس وعلم النفس المرضي .

وكانت هذه الاختبارات بوادر لاختبارات الإسقاط فنجد يونج Yung يستفيد من اختبارات جالتون Galton وفنت Wundt في علم النفس وكريبلا Kraepelin واشافنبرج Aschaffenburg في علم النفس المرضي . كما كانت اختباران استيوارت وبين Stuart et Payne وبينيه وهنرى Binet et Henri سابقة على اختبار رورشاخ الذى استفاد من تجارب تزيمون هنز Szimon Hens سنة ١٩١٧ في بقع الحبر . ولكن على الرغم من هذا فإن فكرة اختبارات الإسقاط وإن تطورت عن الاختبارات القديمة فإنها تصدر عن فكرة لم تكن في هذه الاختبارات القديمة وهي أن العملية العقلية لايمكن أن تستقل عن الحياة النفسية التي ليست بدورها حاصلة من مجموع عمليات نفسية منفصلة . وهذه الفكرة الجشطلتية قد فطن لها لاهوتي نابغ من زيورخ هو چوهان جسبار لافاتير . Johan Gaspar Lavater (١٧٤١ — ١٨٠١) فطن إلى تكامل الحياة النفسية في الفرد فقال : « إنه وحدة سامية واتحاد منسجم للألوان المتباينة في شعاع واحد للشمس . » وتوصل إلى بيان أن تبعية الجزء للكل يلزم عنها العكس أي إمكان الوصول من الجزء إلى الكل فقال إننا نستطيع أن نحكم على شخصية الإنسان من طريقة رفعه لقبعته . ولكن بعد أن قوبلت هذه الآراء بحماس بادئ الأمر سقطت في زوايا النسيان حتى أحياها الجشطلت . وقد مهدت آراء لافاتير في علم الجرافولوجيا Graphologie الطريق لفكرة الإسقاط وهذه الآراء العلمية القيمة التي توصل إليها لافاتير إنما كانت نتيجة لنزعته الصوفية إذ كان يرى إمكان الوصول إلى الله من خلال المظاهر الصادرة عنه وخاصة ذلك الإنسان الذى خلقه على مثاله .

وإلى جانب هذين التيارين الأساسيين تيار الاختبار العلمى الخالص وتيار لاڤاتير الصوفى ، ساهمت بعض الظروف العلمية الأخرى فى نشأة اختبارات الإسقاط ، فنجد الطب العقلى الكلينيكى حينما لم يعد ينظر إلى أعراض الذهان على أنها وحدات منفصلة قد استعان باختبارات الإسقاط للكشف عن العلاقة المتبادلة بين هذه الأعراض . أما فى ميدان التحليل النفسى فلا يمكننا بحال ما إغفال قيمة تجربة التداعى الحر وكيف أنها لم تخرج عن أن تكون نوعاً من اختبارات الإسقاط التى تكشف عن وجوه كثيرة من الحياة النفسية مثل أعراض الاضطرابات العقلية وفى تقدير الذكاء ومضمون الشخصية وكطريقة تستخدم فى الطب السيكوسوماتى لتقدير (السيكوسوماتى) الظواهر الوجدانية التى تظهر أثناء التجربة فى التنفس والحركات والمنعكسات السيكوجلڤانية . Les réflexes psychogalvaniques .

ثم كان هرمان رورشاخ Herman Rorchach (١٨٨٤ — ١٩٢٢) الذى وصلت على يديه اختبارات الإسقاط إلى درجة عظيمة الأهمية سواء فى علم النفس أو فى علم النفس المرضى . ولعل الباحث المحقق أن يدرك سبب اهتمام رورشاخ بهذا الموضوع إذا عرف الصلة الوثقية بين اختبارات الإسقاط ومشاكل رورشاخ الداخلية الخاصة . فقد علمنا كيف كانت هذه الاختبارات ثمرة لتيارين هما تيار العلوم الوضعية وتيار الحدس الصوفى . وكذلك تبلورت هاتان النزعتان فى إنتاج رورشاخ الروحى . ذلك أنه تتلمذ فى صدر شبابه على هيكل فتمت له بذلك النزعة العلمية الصرفة ثم اندمج بعد ذلك فى الحياة الروسية وتشبع بروحها بما قرأه لمفكريها وشعرائها فتم له بذلك الجانب الصوفى . ومما يستحق الذكر فى هذا المقام أن يونج نفسه بعد أن ساهم ببحوثه فى تطور اختبارات الإسقاط انتهى إلى أبحاث قيمة فى مهمة التصوف بالنسبة لعلم النفس .

وظلت أبحاث رورشاخ مجهولة القيمة فى العالم الخارجى عدة سنوات حتى تولى بعض العلماء السويسريون نشرها مثل مدام لوزلى استرى M^me^ Loosli Usteri ومدام منكڤسكا M^me^ Minkowska ، فى فرنسا : فلقيت اهتماماً كبيراً وخاصة من جانب الأمريكيين الذين اقدموا على المساهمة فى هذا الميدان فاشترك معى بعض علمائهم فى تطبيقها منذ سنة ١٩٢٩ . حتى إذا توالت فترة تقرب من العشر سنوات ظهرت لنا اختبارات جديدة نذكر منها على سبيل المثال :

١ ــ اختبار تفهم الموضوع لمورجان وموراى سنة ١٩٣٨ .

Thematic apperception test. Morgan et Murray

٢ ــ اختبارات اللعب عند الأطفال .

٣ ــ اختبارات الرسومات لفارتج سنة ١٩٣٩ .

Gestallungstest. Wartegg

٤ ــ اختبار التداعى بالصور لروزنزفج سنة ١٩٤٥

Picture association method. Rosenzweig

٥ ــ صور مرضى الأمراض العقلية لمعرفة استجابة المختبر لزندى سنة ١٩٤٦

ولما كان العلم فى تطور فلا نستبعد أن تسقط قيمة بعض الاختبارات التى نظنها هامة الآن بينما تنشأ اختبارات فى غاية الأهمية من أقل العمليات شأناً فى نظرنا . على أن الذين تولوا بحث الاختبارات فى عصرناهم علماء النفس وليس أطباء الأمراض العقلية الأمر الذى يخشى معه ضياع قيمتها فى العلاج إذا اقتصرت على تقديم صورة شكلية للمرضى ومشاكلهم.

وأخيراً يتضح لنا أن اختبارات الإسقاط بما تنطوى عليه من فكر علمى وآخر حدسى إنما تعبر عن مشاكل حيوية فى علم النفس المرضى وإن لم تكن وسيلة لإصلاح الميول الشاذة فى الشخصية . ويخطأ من يظن إمكان رد الاختبارات إلى معادلات وأرقام تحل بالحساب لأن الرقم فى صيغة الاختبار ليس له قيمة مستقلة عن السياق ولا يستغنى المنهج فيها عن الحدس والشعور المنذر والتخمين . وليس المطلوب منها كما قد توهم أخصائيو الاختبار فى المدرسة القديمة تحويل الشخصية وهى القيمة الحية إلى صيغة رياضية جامدة ولا تحويل علم النفس إلى علم رياضى . وإنما يجب ألا نغالى فيما نطالب به اختبارات الإسقاط ولنقل بتواضع رواده السويسريون الأوائل أنه «لا يستطيع أن يحسم الخلاف الموجود بين الكم المقاس والكم غير القابل للقياس وإن استطاع أن يظهره جلياً واضحاً» .

ترجمة أميرة حلمى مطر